

# التكفير تحت السريين

تأليف: كلير أزواردي  
(مالطا)

ترجمة: وليد نبهان



**Arts Center**  
مركز الفنون



الملتقى الإبداعي للفرق المسرحية المستقلة  
أوروبا - البحر المتوسط

2009



# التكفير تحت السرير

تأليف: كلير أزوباردي

كلير أزوباردي (1977). أصدرت سلسلة كتب مدرسية للأطفال مكونة من ستة كتب تحت اسم (نجوم 2003 - 2006). قامت بتحرير سلسلة أخرى مكونة من اثني عشر كتاباً بعنوان (صندوق ألوان/ صندوق رياح 2005 - 2007) وتعمل الآن على إصدار روايتها الأولى الخاصة بالأطفال. من مؤلفاتها: (الآخرون/ على الجانب الآخر 2005)، (الخط الأخضر 2006) الذي نالت عنه جائزة الكتاب الوطني في مالطا. ظهرت بعض أعمالها مترجمة في العديد من الدوريات الأدبية منها:

In Focus (Pen Cyprus, 2005/2006)

Cúirt 21 (Ireland, 2006)

Lettre (Hungary, 2006)

Kulturas Forms (Latvia, 2006)

Transcript (LAF, 2007)

Skald (Wales, 2007)

وعلى الموقع الإلكتروني: [www.laurahird.com](http://www.laurahird.com)

كافة الحقوق محفوظة للمؤلف. ولا يجوز تناول هذا النص المسرحي، أو تحويله إلى كافة أشكال الأعمال المرئية، أو المسموعة، دون الحصول على موافقة كتابية من المؤلف.

e-mail: [clareazz@googlemail.com](mailto:clareazz@googlemail.com)



## نبذة عن الجو العام للمسرحية

جلبَ النزاع الديني السياسي في الستينيات جواً من التوتر والانقسام في المجتمع المالطي إذ شعرت الكنيسة آنذاك بالتهديد المباشر من قبل حزب العمال تحت قيادة دومينيكو متتوف الذي طالب بإنهاء الوصاية الإنجليزية على مالطا، إما بالتكامل مع المملكة المتحدة أو جلاء قواتها عن مالطا. وتفاقت حدة الأزمة بسبب انتساب حزب العمال إلى منظمة تضامن الشعوب الأفرو-آسيوية حيث تعاضم شعور الكنيسة بالتهديد في الوقت الذي ظل حزب العمال مصمماً على إنجاز مشروعه من أجل تحرير مالطا من الحكم البريطاني، وبذلك امتد النزاع مع الحكومة الاستعمارية ليشمل أيضاً السلطات الكنسية.

في الثامن من نيسان/أبريل عام 1961 قامت الكنيسة بتكفير أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب العمال. وقد كان لوري سانت (وزير عمالي في تلك الحقبة) يرضح تحت هذه الإدانة الرسمية منذ التاسع من نيسان/أبريل عام 1960 بعد أن كانت صحيفة الكفاح التي كان يحررها قد ادّعت بأن الرسالة الرعوية التي أصدرها كبير الأساقفة كان وراءها دوافع سياسية بحتة. كان التحريم يقضي بمنع الأفراد المعنيين من المشاركة في الطقوس الدينية المقدسة بحيث يحظر على الشخص المدان الاعتراف أو تلقي الخبز المقدس أو حتى الزواج في الكنيسة، وقد أحييت مثل هذه الزيجات إلى غرفة الخدم والملابس، ولم تحظ بيوت أولئك الأشخاص بمباركة الكنيسة خلال احتفالات عيد الفصح، وعلاوة على ذلك، لم يسمح بدفنهم وفقاً للتعاليم المسيحية. وقد جلب قرار الكنيسة بمنع دفن من تم تكفيرهم في أرض مباركة من قبل الكنيسة

الكثير من الألم والمعاناة لأسر أولئك الأشخاص الذين وافتهم المنية خلال تلك الحقبة، ومما زاد الأمر سوءاً أن المكان "غير المبارك" الذي اتخذ مدفناً لأولئك الأشخاص صار يعرف لاحقاً بالمزبلة. وقد حدث أن توفي خلال تلك الفترة الكاتب المعروف ونائب زعيم حزب العمال جوزيه اللول ميرسر وتم دفنه في ما يعرف بالمزبلة مما زاد من تفاقم واحتقان الوضع السياسي. من جهة أخرى، اعتبر كل من يقوم بالنشر أو الإسهام في بيع أو قراءة الصحف الصادرة عن حزب العمال مرتكباً للمعاصي والذنوب.

أدت الأوضاع السياسية تلك إلى انتشار الفرقة وانقسام الشعب المالطي إلى معسكرين، فريق يقف مع قونزي رئيس الأساقفة من جهة، وفريق آخر يقف إلى جانب دومينيكو منتوف من جهة أخرى. واحتشد أنصار الكنيسة تحت لواء ما يعرف بالجوقة، حيث كانوا ينظمون المسيرات ويثون الشعارات المعادية للشيوعية ويناشدون الناس إبداء الولاء للكنيسة. على الجانب الآخر تصدى لهم حزب العمال والاتحاد العام لنقابات العمال حيث اتهم العماليون رجال الدين بأنهم أصبحوا ساسة، وردّ رجال الدين على العماليين بأن اتهموهم بالشيوعية. وكثيراً ما كانت تجابه مسيرات حزب العمال بقرع الأجراس من الكنائس المجاورة لمنع خطبائهم ومتكلميهم من إيصال رسائلهم لجموع مناصريهم مما أدى إلى اندلاع الكثير من أعمال العنف والشغب خلال تلك المواجهات، ونذكر منها حادثة السوق في قوزو في أيار/ مايو 1961 حيث تم قرع الأجراس بلا توقف. وفور انتهاء التجمع قام أهل قوزو ممن كانوا معارضين لحزب العمال بتنظيف السوق بمادة مطهرة. وفي انتخابات عام 1962 اعتبرت الكنيسة أنّ كل من يصوت لحزب العمال يرتكب خطيئة مميتة لا توبة

منها حيث فسّر ذلك التصويت على أنه ضد الكنيسة نفسها.  
استمرت فتوى الكنيسة بتكفير أنصار حزب العمال إلى أن رُفعت بعيد  
استقلال مالطا عام 1964.

تبدأ هذه المسرحية بمونولوج لميمي وهي فتاة شابة توفيت عام 1960  
وتم دفنها فيما كان يعرف بالمزبلة لأنها كانت مُكفّرة من قبل الكنيسة  
مما يعني أنها دُفنت في أرض غير مباركة. تبقى روح ميمي تطوف في  
الجزء الذي دفنت فيه من المقبرة على الرغم من أن الجدار الذي كان  
يفصل المزبلة عن بقية المقبرة قد هُدم ولم يعد هناك وجود للمزبلة.  
انتظرت ميمي طويلاً انضمام والدتها إليها بعد موتها لأنها أرادت أن  
تعطيها شيئاً ما، وعلى الرغم من أن أحداً لا يخبرنا ما هو ذلك الشيء إلا  
أننا نستدل عليه من خلال سردها لذكرياتها في الحياة.

المونولوج الثاني لبولس دافن الموتى (تربي) الذي يعمل في مقبرة  
الأدولوراتا حيث تركز قصته على تجربته كموظف حكومي في تلك  
المقبرة مع زميله جيليان الذي توفي فيما بعد. يقوم دافن الموتى  
بالشكوى والتذمر حول الكثير من الأمور التي تحدث في المقبرة والتي  
غالباً ما تكون غائبة تماماً عن أذهاننا لكننا نجد أنفسنا فجأة وجهاً لوجه  
معها عندما تجيء لحظة موارة أجسادنا الثرى.

كلير أزهاردري





تدخل ميمي بينما يُسمع في الخلفية تسجيل صوتي لمعاون كبير  
الأساقفة قونزي في أحد تجمعات الستينيات عندما قامت الكنيسة  
بتكفير الحزب الاشتراكي:

"منذ ثلاثين عاماً اندلعت في إسبانيا حرب أهلية، لكنها لم تكن  
حرباً أهلية في جوهرها بقدر ما كانت محاولة أولى من الشيوعية  
الروسية للاستيلاء على بلد بكامله بقوة السلاح، وكانت روسيا  
على وشك أن تفعل ذلك فعلاً في إسبانيا البلد الكاثوليكي  
المحافظ، ولكن لماذا؟ لأنها وجدت الطريق أمامها ممهداً، فساد  
بين الشباب وصحافة تبثّ شعارات فاسدة. اشتراكية متفشية بين  
العمال، والمفكرون مشبعون بأفكار خاطئة عن التحرر، كل يغني  
على ليلاه، وسيء الحظ من لا يفعل، مفاهيم خاطئة عن العلمانية،  
وعن أنّ الدين داخل الكنيسة فقط ولا يجب أن يلعب دوراً في  
الحياة العامة أو في السياسة، ولا في العمل وطرق الترفيه بشكل  
عام. المادية متفشية، المال والمتعة واللامتعة والمال. لذلك  
فقد قام الكاثوليكيون الإسبان إبان حقبة الاشتراكيين وزمرتهم  
بحرق أعداد هائلة من الكنائس والأديرة، وقتلوا مئات الأساقفة  
وقطعوا أوصال آلاف الكهنة والمؤمنين والمسيحيين من طوائف  
أخرى، وقد وصل بهم الأمر إلى حدّ إخراج جثث الراهبات من  
القبور وإلقائها في المزابل. إنّ ما حدث في إسبانيا الكاثوليكية  
يحدث الآن في مالطا الكاثوليكية بسبب جهل الكثيرين بالدين  
والحقد الشيطاني للبعض، إنّ الفراش مهيبٌ جداً للذئب القادم

لباس الحمل، لكن أسنانه بارزة وأظافره وذيله معروفة لدينا،  
ونعلم أنه قد اختطف أكثر من حمل واحد من حظيرة السيد  
المسيح المألوية".

تغني ميمي:

شراشيب شراشيب وحقبية

أنا لا أدفع الضريبة

نسيح عناكب وصراصير

كل شيء هنا ملك للديدان

كم أنا جميلة

ابنة أبيها

في هذي القبور المتراصة

حيث يرقد القديسون في المزبلة

يفترض أن أكون قد هرمتُ، لأرى إن كنت سأبقى جميلة، لكن  
ما حدث أنني لم أكبر فهل ما زلت جميلة؟

ويفترض أن تكون لي صورة هنا، يبدو أنها بقيت على المنضدة،  
أو في درج الخزانة تعانق رائحة الوحدة، على الأرجح أن أمي  
قد احتفظت بها هناك، فتلك هي الصورة الوحيدة لي، ولا بد  
أن دموع أمي قد انتزعت منها تلك الابتسامة التي التصقت بها

لسنوات طويلة، كم ستبقى مبتسمة تلك الصورة؟ يفترض أنها هرمت.

قالوا بأنهم رأوا الأفاعي والديدان خارجة من بطني، والعقارب من فمي، والباعوض يدور حول رأسي، وقالوا بأني أستحق ذلك العقاب، أمي أقسمت للقسيس بأنها لم ترَ أية عقارب أو أفاعٍ، لا أدري إن كان قد صدقها أم لا، ثم شاهدتها تبكي وتصرخ من شدة الخوف، وتقاتل جاهدة من أجل أن يتم تشييعي إلى مثواي بالصليب، لكن الجيران قالوا لها بأني غير جديدة بالصليب، وفي الطريق إلى القبر أخذت تتساقط ذكرياتنا الواحدة تلو الأخرى عليها تنبت، لكن جيراننا الأعزاء اقتلعوها ورموها في القمامة، قالوا إنها ذكريات مخزية، أمي ذهبت للبحث عنها، لكنها لم تجد شيئاً، بدأت تزرع ذكريات جديدة في كل مرة تحضر فيها إلى هنا وتسقيها بدموعها، لكن دموعها ذابلة وجافة، لذلك لم ينبت منها أي شيء.

أعتقد أنها احتفظت بالصورة في الدولاب، ووضعت فوقها الصليب كي لا يأتي الشيطان ويأخذها منها. حتى الشيطان لا يريدني يا أمي.

آخر مرة رأيته فيها هنا، أمضى ربع ساعة وحيداً يحرق في الفراغ، بدا كأنه ليس متأكداً من قبوري، فهو لم يحضر منذ زمن، ولا صورة لي، واسمي لم يعد مقروءاً، أظنه قد نسي نفسه يومها وبقي واقفاً والأزهار في يده.. لا أستطيع نسيانه أبداً، كيف أنساه

وقد كنت سأتزوجهُ.

### تضحك

وبالتأكيد كنا سننجب أطفالاً كثيرين، فأنا وحيدة لا أخ ولا أخت لي، لكننا أحببنا أشياء أخرى أكثر مما أحببنا بعضنا البعض.. وبعد سنة من الغرام، لم نكن قد تزوجنا بعد، قلت له: أهذا ما أحضرت لي، أزهار بلاستيكية؟ احمرّ وجهه خجلاً، ثم طأطأ رأسه.

### صمت

يداه خلف ظهره، بدأت أنادي أحبك، أحبك... لكنه لم يسمعني. أخذ باقة الأزهار معه وعاد.. ربما لأنه لم يجد مزهرية، أو ربما لأنه تملكه الخجل.. لكنه لم يعد ثانية.

### تغني

يوم يوم الباب

أونجي أونجي أونجيلاً

يوم يوم الباب

أونجي أونجي أوه كفالير

من الذي جاء من الذي جاء

أونجي أونجي أونجيلاً

من الذي جاء من الذي جاء

أونجي أونجي أوه كافالير

جاء بولس دافن الموتى

أونجي أونجي أوه كافالير

جاء بولس دافن الموتى

أونجي أونجي أوه كافالير

ماذا يريد بولس دافن الموتى

أونجي أونجي أوه كافالير

ماذا يريد بولس دافن الموتى

أونجي أونجي أوه كافالير

يريد بنتاً سيئة

أونجي أونجي أوه كافالير

يريد بنتاً سيئة

أونجي أونجي أوه كافالير

ماذا سيفعل بها

أونجي أونجي أوه كافالير

ماذا سيفعل بها

أونجي أونجي أوه كفالير

سيعطيها مكاناً في المذبلة

أونجي أونجي أوه كفالير

سيعطيها مكاناً في المذبلة

أونجي أونجي أوه كفالير

من هي هذي البنت

أونجي أونجي أوه كفالير

من هي هذي البنت

أونجي أونجي أوه كفالير

إنها ميمي فيلاً

أونجي أونجي أوه كفالير

إنها ميمي فيلاً

أونجي أونجي أوه كفالير

خذوها إن أردتموها

لسنا بحاجة إليها

جروها بدون الصليب

هذا ما يستحقه أتباع المهندس<sup>1</sup>

أظن أن أمي ستحضر اليوم، لحظات وتكون هنا. لم تأت منذ مدة، ربما لأنها قد هرمت كثيراً. من الأفضل أن أنتظرها هنا، فمن هنا أراها جيداً.

يفترض أن تصل بعد قليل، ستمكث طويلاً هذه المرة، ستمكث أكثر من آخر عناق بيننا والذي استمر ليومين.. ربما لفرط تقدمها في العمر.

في ذلك اليوم جاء الجيران وفصلونا، قالوا بأنهم بدءوا يشمون رائحة كريهة مثل رائحة تبغ المسنين.

ومن هنا بدأ كل شيء

أثناء مشيها عشر على شيء وتلتقطه

وأخيراً وجدتك

تخبئه في مكان ما

إذا جاءت اليوم فسأعطيها لها، وأقول لها انظري كم جمعت، لم تحضري طوال كل هذا الوقت، انظري كم جمعت لك، كلها لك، لكن.. يبدو أنها لن تحضر اليوم كذلك، لم تأت منذ مدة طويلة، ولكن.. لا يمكن أن تكون قد نسيتني، لا، من المؤكد أنها لم تفعل، حتى وإن كانت المزهرية فارغة منذ زمن، حتى وإن طارت أوراق الأزهار مع الريح بعيداً لتنبت أزهاراً بلاستيكية

تشبهها، حتى وإن خمدت الشمعة منذ زمن، فهي لا تنساني، عليّ أن أبدو جميلة، حتى تراني أُمي جميلة مثلما كنتُ في آخر مرة عندما جاءت وأشعلت الشموع.

### ترتب شعرها

آخر شمعة أشعلتها أنا كانت أمام المنقذ<sup>2</sup>. أُمي أشعلت أخرى أمام المخلّص، هكذا كانت توّمن، مثل الجميع، أنا كنت أوّمن بطريقة مختلفة، لكنني كنت أتفهمها، وأظنّ بأنها أيضاً كانت تفهمني لأنها لم تسألني أبداً لماذا، لكن تلك المشاهد، القسيس يحاول إفهامها ما لم يستطع فهمه هو نفسه، وأُمي تبكي وتندب صارخة بأني بنتٌ قديسة، وبأني أستحق أفضل من ذلك.

هيا أمّاه، قديسة دفعة واحدة.. أبداً

وبأني لا أستحق معاملة الشياطين تلك، وبأنه قد كان على الكنيسة أن تصفح وتعفو، وبأني بقيت أتناول خبز القربان المقدس، وبأني كنت قد تبتُّ واستغفرت عن كل ما فعلت.

ليس صحيحاً أبداً أبداً

وبأني في ذاك اليوم كنت أستحق قدّاساً حسب الأصول. وبأنها أرادت أن تكلم الأسقف، لكنها لم تتمكن، وبأنها ظلت دائماً مواظبة على إشعال الشموع أمام المخلّص وأمام قلب العذراء، وبأن اللعنة ستحل الآن على العائلة.

القسيس يقول لها أنت لم تعترفي منذ مدة وابتكت لم تتناول الخبز



المقدس منذ زمن.

لكن أُمي ظلت تصرخ حتى تفسخ صوتها وتحلل إلى مئة ألف  
خيطة أسود، ثم غرقت في الحداد.

### تضحك

لقد فهمتُ وقتها بأنّ أُمي لم تفهم شيئاً أبداً، كانت تحبني وتغلق  
فمها، وفمها الآن مغلق بذكرياتي المخاطة على شفيتها، لكن..  
ألا تموت الذكريات عندما نموت؟

لكنني ما زلت أتذكر

لا زلت أذكر طعم ألد حبة شوكولاتة بين أسناني، وما زلت أذكر  
قبلة جورج الأولى تذوب في فمي، وإيقاع كعب حدائي أثناء  
عبوري شارع سترادا ريالتي.. كم كنتُ غاضبة على فرانس في  
ذلك اليوم.

– لا أستطيع

– لماذا؟ ماذا فعلتُ لك؟

– ليس أنتِ

– من إذن؟

– لا أستطيع

– هناك أخرى أليس كذلك؟ قل بأنّ هناك أخرى وسأمضي، لا  
تخف، لن تراني مجدداً

- ليس هناك أخرى
- إذن ماذا؟
- لا أدري كيف سأخبرك
- كم أنت قاسٍ وعنيد
- أحبك
- وأنا أيضاً
- لكننا.. لن نتفق.. نحن لا نتفق على كثير من الأمور
- بسبب السياسة؟
- بل بسبب المنقذ
- ألهذا ستركني فرانس؟ بسبب المنقذ؟
- سامحيني يا ميمي . سامحيني

### تضحك

وبدأت أضربة بحقيبة يدي، ثم خلعت الحذاء وبدأت أضربه بكعبه في كل مكان.. لم يقل شيئاً، وعندما هدأت، أخذ يقبلني في كل مكان.

تملكني الغضب في ذلك اليوم لأن جارتنا ماريا تكلمت مع القسّ وطلبت منه أن يتوقف عن مباركة بيتنا لأنني مع الحُمر<sup>3</sup>، مع الخنازير، حتى وإن كانت أُمي تمضي الليل بأكمله أمام قلب

اليسوع. وفي اليوم التالي ذهبتُ وطرقتُ باب جارتنا ماريّا  
وسألتها ما إذا كانت ترغب في الانضمام إلى الحركة النسوية  
الجديدة فخرجت جارية ورائي بالمكنسة.

– وسخّة...

– ماذا قلت؟

– لماذا لا تذهبي وتغتسلي أيتها القدرة

– قدرة؟ أنا قدرة؟ أنت هي القدرة

– اذهبي واغتسلي.. وسخّة

– أنا الوسخّة؟.. لماذا لا ترين وساخة ابنتك يا...

– خنزيرة أنت وذلك الخنزير الذي يقودكم.. انظري إلى أين  
أوصلنا ذلك القدر، حريّ به أن يخجل.. رجل شرير.

**تغني**

دورة دوريلّا

حمراء يا شبرة

مخملي منديلي

نلوح به أنا وخطيبي

**تضحك**

في العمل عرف الجميع بالقصة لكنهم تظاهروا بأنهم لا يعرفون،

وأصروا على لعب دور العبيط، وبقوا دائماً يضحكون، لكنهم أطفقوا صامتين عندما أخبرتهم بأني لن أحضر للعمل مجدداً لأن المدير أحضر سكرتيرة أخرى. لم يضحكوا، بدأت الأوراق فوق مكاتبهم تمتزج بالعرق، والمقاعد تنتقل في الغرفة كقطع مجانيين.

"من الأفضل أن تجدي عملاً آخر يا ميمي، هذا ليس بالمكان المناسب لك، ستكونين أفضل إن وجدتي عملاً في مكان آخر".

لم أغضب في ذلك اليوم، بل انفجرت ضاحكة، وضحك الجميع بما في ذلك أدوات التجميل داخل الجارور.

كان لدي قلم أحمر شفاه في مكان ما، أين هو؟ كان في حقيبة يدي، هل كان لدي شوكولاتة أيضاً؟ يبدو أنني نسيت بأني قد أكلتها، ويبدو أن أمي قد نسيتني هي الأخرى، لم تحضر إلي الآن. ماذا لو كانت صورتي التي بحوزتها قد فقدت ألوانها.. لا شك بأنها قد نسيت مظهري الآن.

كنت سأصبح رئيسة، نعم رئيسة للحركة النسوية في الحزب، لكنني مت صغيرة، ورغم صغر سني آنذاك إلا أنني كنت نائبة الرئيسة في الحركة النسوية في الحزب، وكنت أصعد إلى المنصة، وأتكلم بصوت جهوري، وكانت تخرج من فمي أحلام كثيرة، لكن خطاباتي اليوم لم تعد سوى مجرد خرافات لا يصغي إليها سوى الصراصير أسفل قدمي.

أكره الصراصير

كانت هنا حكاية في مكان ما

**تفتش**

كان لديّ الكثير من الأحلام، جميعها أصبحت خرافات، خرافات بلا سَحْرَة وملوك وأمراء، والخرافة بلا ساحر لا تُفهم. آخر خرافة سمعتها ضحكْتُ حتى خرج القرنفل من فمي، كان قد رواها لي جورج، ثم أخبرني أنه يحبني، فبنت الأَقْحوان على خدّي. في البداية عندما حضرتُ إلى هنا كان لديّ الكثير من الأزهار والورود، لكن يبدو أنها لم تعد موضوعة الآن.

**تبدو كأنها تبحث عن شيء**

نسيْتُ عما أبحث

كان هناك حكاية مكتوبة على شَبْرَة حمراء، كانت تلبسها بنت ماتت منذ ثلاث وأربعين سنة، ومذاك لم يرو أحد حكايتها، وفي النهاية تنتصر الساحرة، وتموت البنت مختنقة بالشوكولاتة. الآن لديّ الكثير منها، إن حضرتُ أمي فسوف أعطيها لها كلها هدية.

هل ترين كيف لم أنساك، أنتِ تغيرتِ قليلاً أيضاً.

أسمع أجراساً في الساحة، ألوّح بالمنديل، وأنصت لجدّي يخاطبني:

- لا تنظري هناك

- أين أنظري إذن؟

- إلى الأعلى هناك.. انظري

- لكنني لا أرى شيئاً

- هناك.. نحو المنقذ

- ولكن...

- أولئك ضدنا

بدأت أكبر ولم أفهم لماذا كانت الأجراس ضدنا، جدي أخبرني أنه في ذلك اليوم كان هناك قندلفت<sup>4</sup> شرير بدأ بقرع الأجراس في غير موعدها فعاقبه الله بتحويله إلى تمثال من الرخام يحدق في الأجراس باستمرار. أخبرني أيضاً أن الأجراس بقيت تدق طوال الوقت والخادم التمثال يحدق فيها فاغراً فاه.

تقف ميمي لتستمع إلى أحد خطابات المهندس منتوف أيام التحريم

"هؤلاء اليوم، يعيروننا بأنا شيعيون، وهم يفعلون ذلك منذ زمن طويل، يتناولون علينا من داخل الكنائس ومن الساحات العامة ونحن لم نفعل معهم ذلك إطلاقاً. كان اليسوع يعظ مرة - هؤلاء بالطبع لا يريدون أن يسمعوا كلمة يسوع لذلك فهم يقرعون الأجراس، لو عاد اليسوع من جديد فلا شك بأنه سوف

يضربهم بيديه. نعم بيديه سيضرب هؤلاء - كان يسوع يعظ مرة فخرج إليه رجل من الحشد وسأله: أيها المعلم، ماذا أفعل لأكسب الجنة؟ فالتفت إليه يسوع وقال: أعطي كل ما لديك للفقراء واتبعني.. نحن نعتبرهم أناساً يلهثون وراء الدنيا لإشباع شهواتهم ليس أكثر... هذا يذكرني بالمسيح عندما دخل إلى كنيس في القدس، وهو الكنيسة في ذلك الزمان، فوجد القسيسين وقد أقاموا سوقاً، فطردهم وخرج مسرعاً...“.

**تخرج ميمي ويدخل بولس دافن الموتى، يقوم ببعض الأعمال في المقبرة**

الدفان يدور يدور

من أجل الصبايا يدور

عندما يصل إلى الساحة العامة

يزنّ زن زن زن

قلت لجيليان مرة بأني لن ألبس ربطات عنق، هذه الحرارة ستقتلني، قال لي "ماذا؟ بحق اللعنة اذهب واللبس ربطة عنق الآن، امشي، وبدل تلك السترة، هذه البسها فقط عندما نزل إلى الحفرة في الأسفل ليس هنا هل تفهم، كم مرة عليّ أن أقول لك ذلك؟ يا إلهي.. ألا تعلم بأننا اليوم لدينا دي بيرو دي جيليس؟ هذا رجل كبير تعلم ذلك". وماذا يهمني إن كان كبيراً أم صعلوكاً،

أنا لا أكثرث لذلك. لكنّ الخازوق أنه كلما مات أحد من دي بيرو دي جيليس عليّ أن ألبس الكرافتة وأتبهدل في الشمس، والأدهى من ذلك كله أنّ هؤلاء الـ دي دي زفت والأزبار لا يموتون إلّا في الصيف.

أنا غالباً لا أكثرث، لا أكثرث من وكيف.. أعطني التابوت والمجرفة وهلمّ لألقي بك في القبر، لا يهمني إن كان رأسك للأعلى أو ساقك للأسفل، سيان بالنسبة لي. إن كنت ميتاً فما الفرق؟ بحق الجحيم، هذا البكاء الكثير وهذا التباهي والحداد والمناديل والمصافحات، وهذه الأدعية والصلوات.. أنا أعطني أحداً لأدفنه وهلم بنا. لكنّ جيليان لم يكن كذلك.

ثم أليس الجميع سواسية هنا؟ يفترض أن يكون الجميع سواسية هنا لكنّ الأمر ليس كذلك، حتى بعد مماتك. فهناك من يدفن في المنطقة (أ) وهناك من يدفن في المنطقة (ب) وهناك من هو في الحجرة العليا ومن هو في الدرك الأسفل. حتى بالنسبة لدفن الموتى، فهناك جاكيت وجاكيت، وحذاء وحذاء. شيء عجيب. هل تظنّ بأنّ أحداً من هؤلاء سيصرخ في وجهي بعد دفنه: لن تأخذ بقشيشاً.. على كل الأحوال فليس لديّ ما يقلقني، الأثرياء غالباً لا يعطون بقشيشاً.

جيليان كان يقول لي "هنا لا توجد مساواة. هذه كلمة ثقيلة، لكن عليك أن تتعلمها جيداً ما دمت قد بدأت تعمل هنا. ليس الجميع



سواسية هنا هل تفهم؟ هذا شأن يراه الله فيما بعد. هنا تُقيم بناءً على كم لديك من هذه... انظر... أدخلها في رأسك جيداً".

"عليك أن تفهم"، كان يقول جيليان. "فهناك من كان محامياً في حياته وهناك من كان فلاحاً، فلا تتوقع أن يُدفن المحامي إلى جوار الفلاح.. هل تفهم؟".

جيليان كان يتغير عندما كنا نكون في الحجرة، فلا خبز بالزبدة والمُتديلا<sup>5</sup> ولا إيبه يا زُمْل، هذه الأشياء كان ينساها في حجرة الذوات.. ثم تراه يردّ الصليب - علماً بأنه لم يكن يؤمن بأي شيء، فقد أخبرني مرة أنه قد كفر بكل شيء منذ أن بدأ العمل هنا - وكان يتظاهر بالحزن وعندما نقوم بإنزال التابوت بهدوء إلى الحجرة (أ) كان يجعلني أنزل إلى القبر ويبقى هوف في الخارج حتى تتسنى رؤيته، ولا يصرخ في وجهي أبداً، بل يبقى هادئاً أكثر من الميت الذي في التابوت - ثم يبهلني أضعافاً بعد ذهاب الناس - وذلك كي يوحي بأنه دافن موتى راقٍ، وعندما كان يحصل على بقشيش كنت أسمعته يقول "لا يا سيدي فهذا عملي" وفي الوقت ذاته يفتح يده اليسرى "إني أصلي من أجله، لقد كان كبيراً السيد فلان، كان رجلاً كبيراً حقاً فليمنحه الله الراحة الأبدية" ويزج بالنقود في جيبه، ولم يكن يعطيني منها شيئاً، بل كان يجعلني أخفض رأسي ريثما يذهب الجميع - كنا نفعل ذلك فقط عند حضور أحد الرؤوس كبيرة - ونتمتم بأدعية توهم بأننا متعلمون.

سألتُ جيليان مرةً "هل تظن بأنّ الأسقف سيدفن هنا؟ هل سندفن أسقفاً في أحد الأيام؟". فأنا أرغب في دفن أسقف، لقد دفنت جميع أنواع البشر حتى الآن باستثناء أسقفاً.. لكنّ هذه مثل حكاية المحامي والفلاح. أجبني وقتها بأنّ الأساقفة يدفنون في الكاتدرائية حتى يكونوا تحت عيني الله طوال الوقت ولكي يتسنى للسباح زيارتهم، فهنا، كان يقول لي "هنا لا توجد آلهة. لا أحد في هذه المقبرة سوى أنا وأنت والحارس ودائماً نحن في انتظار صدور طلبات توظيف جديدة من الحكومة لأننا بالكاد نتمكن من إنجاز كل هذا الشغل".

أحياناً أقول لنفسي بحق العذراء، كم ستوسع هذه المقبرة اللعينة.. الكل يريد أن يُدفن هنا. لا أدري كم ألفاً ينتظرون تصاريح للحصول على قطعة قبر للأسرة هنا. وهم من أجل ذلك يدفعون الآلاف. ستة آلاف لقاء قبر تافه، ثمن كراج تقريباً. هكذا نحن، نشترى قبراً لميت سخيف بدلاً من كراج لسيارة فاخرة. لا أدري ماذا سنفعل في المستقبل. على كل حال هذه الحكومة لا تريد إصدار تصاريح جديدة. من الطبيعي ألا تصدر تصاريح جديدة إذ لم يعد هناك متسع للمزيد. هناك ثلاثة آلاف ينتظرون.. أظنهم سينتظرون حتى يموتوا.. **يضحك** وأنا - كعادتي - لا أبالي.. **يضحك**.

في الحقيقة لو أن الأمر عائد لي فعندي حل مناسب. نحرقهم ونعطي رمادهم لعائلاتهم ليأخذوه معهم إلى البيت. على الكنيسة

أن تصدر فتوى بهذا الصدد. كل من يموت يُحرق لأنه لم يعد هناك متسع. إنني من على قطعة الصخر هذه أقول بأنه لم يعد هناك مكان لنسكن فيه فما بالك بأن ندفن موتانا. لكنني سأفقد عملي إن هم أجازوا بحرق الموتى، لا أظنهم سيحتاجون إليّ بعد ذلك ولكن.. تبا.. لطيزي.

جيليان أخبرني مرة أنهم يفعلون هكذا في الخارج. يحرقون موتاهم ثم يضعون الرماد في مزهرية صغيرة ويضعونها على عتبة النافذة، ثم يحيطونها بالورود ويوقدون لها الشموع. وأخبرني أيضاً أن امرأة - ليس في مالطا لأننا هنا ما زلنا متخلفين كأننا ما زلنا نعيش حقبة ذلك الرجل .. ماذا كان اسمه، رجل الإيزيم<sup>6</sup> كما كان يقول عنه أبي، لأنه هو من أبقانا متخلفين - على أية حال، تلك المرأة، في أميركا على الأرجح، المهم أنها لفرط ما كانت تحب زوجها، أخذت معها رماده بعد حرقه وبدأت تضع قليلاً منه في طعامها كل يوم لمدة ستة أشهر كاملة، وبعد الستة أشهر، أي بعد أن أكلت رماده كله، توفيت. ولا أدري إن كانوا قد حرقوها وأكلوا رمادها كما فعلت برماد زوجها أم لا.

سأطلب منهم أن يحرقوني عندما أموت لأنني لا أريد بعد كل هذه السنوات من العمل أن أدفن هنا في نفس المكان. أحرقوني وخذوني إلى البيت معكم كي أظهر لكم في الليل، **يضحك**، سأجنتكم حتى بعد موتي، **يضحك**، بعد ذلك سيقولون لي اذهب إلى الجحيم... **يضحك**.

سألني جيليان في إحدى المرات، ما هذا الذي معك؟ كنت قد أحضرت معي يومها إم بي ثري (MP3)، كان أحد أصدقائي قد أدخل لي فيه أكثر من مئتي أغنية، ففي بداية عملي هنا كنت أصاب بالضجر بسرعة بسبب الهدوء الكبير الذي لم أكن معتاداً عليه من قبل، على أية حال جيليان أخذ السماعات من على أذني فقلت له وما يفهمك في هذا؟ فقال "ما يفهمني؟ هو هووو! ماذا تظني؟" وبعد أن استمع قليلاً قال لي "أعرف من هذا، أعرفه بالتأكيد لكنني نسيت اسمه، أعلم بأنه كان مطرباً كبيراً وبأنه مات منذ مدة وهو مدفون في باريس". "في باريس" قال لي "هناك مقبرة كبيرة، كبيرة جداً، أكبر من مالطا بأكملها ومدفون فيها الملايين من الناس" وأضاف بأن ذلك المطرب الشهير مدفون فيها أيضاً. وأخبرني بأن ملايين الناس يذهبون كل سنة لرؤيته ووضع الزهور على قبره ولذلك فقد قررت أن أذهب مرة وأموت هناك وأوصي قبل موتي بدفني إلى جانب المغني الباريسي الشهير، المهم ألا أدفن في هذه الأدولورات<sup>7</sup> التعيسة. أظن بأنه الآن بعد انضمامنا إلى الاتحاد الأوروبي، بإمكانني أن أختار المكان الذي أرغب في أن أدفن فيه، أليس كذلك؟ هناك من يختار أين يعمل وهناك من يختار أين يعيش وأنا من حقي أن أختار أين أدفن، وسأختار بأن أدفن في المقبرة الباريسية الكبيرة وإذا اعتراضوا فسأتدبر أمرهم. سأتدبر أمرهم.

بعد وقت قصير من العمل هنا مع جيليان قال لي مرة: "هل تريد

أن تسمع حكاية؟" فقلت له "حكاية ماذا أيها الخرف؟ هل هي من حكايات جحا؟" فقال "أي جحا، هذه حكاية لا يعرفها الكثيرون، لكن بما أنك قد أصبحت الآن دافن موتى فيجب عليك أن تسمعها". جلسنا تحت شجرة بالقرب من القبر العمومي<sup>8</sup> وبدأ يقصّ عليّ فقال: "مرة كان يعيش في مالطا مهندس. مهندس قصير القامة وعنيد الرأس. وقد كان لهذا المهندس حلم وكان مستعداً لفعل أيّ شيء من أجل تحقيقه وبدأ أنه لن يثنيه أحد عن تحقيق ذلك الحلم. أراد أن يقود مالطا والمالطيين، لكن وفي نفس ذلك الزمان، كان يعيش في مالطا أسقف طويل ورقيق وأمين، ما في قلبه يجري على لسانه. وكان لهذا الأسقف حلم أيضاً، أن يقود مالطا والمالطيين ولكن في الطريق السوي. لكن مالطا في ذاك الزمان كانت محكومة من الملكة الجميلة التي استولت عليها منذ أكثر من مئة عام، لذلك لم يكن من السهل على المهندس أن يحقق حلمه لأن الأمر يتطلب أيضاً أن يتخلى الأسقف عن حلمه، لكن لم يبدُ على الأسقف أنه بصدد التخلي عن حلمه بسهولة.. ما حدث بعد ذلك أنّ المهندس والأسقف اشتبكا، فانقسم الشعب إلى قسمين، نصف يهتف "يحيا المهندس" ونصف آخر يصرخ "يحيا الأسقف"، نصف يضع الشموع أمام الأسقف والنصف الآخر يضعها أمام المهندس.

استمرت المعركة لعدة سنوات كان الناس خلالها يرددون ويزبدون ثم يتشاجرون ويقتتلون.. وقد كان الأسقف في الطليعة

لفترات طويلة، لكن المهندس لم ييأس، كان يعرف بأنه لا بد سيخرج منتصراً.

وفي أحد الأيام، "أضاف جيليان،" اجتمع المهندس مع الأسقف في غرفة مغلقة وأمضيا ساعات طوال يتحدثان ويلومان بعضهما على أشياء لم يفهما أحد، واستمرا يتناقشان ويعيران بعضهما البعض إلى أن بزغ القمر ثم خرجا متصافحين مبتسمين. المعركة انتهت ولا أحد يدري كيف تم التوصل إلى ذلك الاتفاق. بقي الشعب واجماً وغاضباً لأنه لم يفهم شيئاً وأراد تفسيراً لما حدث، لكنه سرعان ما نسي وبدأ يهتف "عاش المهندس والأسقف". فرح الناس وفرحت الملكة أيضاً، واعتلى المهندس سدة الحكم لسنوات طويلة إلى أن مله الشعب وتضايق الناس منه وانقلبوا عليه. قد تتساءل لماذا أروي لك هذه الحكاية الآن؟ حسناً، لأن المقبرة في تلك الحقبة كانت مقسومة إلى قسمين، قسم لأتباع المهندس وقسم آخر لأتباع الأسقف، ولكونك تعمل الآن هنا في هذه المقبرة، فعليك أن تعي هذا جيداً. لقد كان هناك حائط يفصل بين الموتى لكنهم أزالوه فور تسلم المهندس لمقاليد الحكم. وأضاف جيليان "إذا نزلت للأسفل في إحدى المرات وشعرت بشيء غريب فذلك لأن روحاً بقيت تتمشى هناك" ولهذا فقد قررت ألا أنزل للأسفل أبداً لأن هذه الأشياء الغريبة تخيفني.

على أية حال، ليس شيئاً عادياً أن تدفن شخصاً مُعدماً، لكنه ليس بالأمر النادر. بالنسبة لي فهذه أجمل ميتة، حتى وإن كان لموت

الفقير رائحة كريهة. رائحة الموت تعتمد على الميت أو الميتة. جيليان كان يقول باستمرار أن للمُعْدَمين والمشردين الأموات رائحة كريهة أكثر من غيرهم لأنهم يظلون لعدة أيام في غرفة الموتى، ينتظر الأطباء خلالها حضور أحد أقاربهم، لكن أحداً لا يأتي وعندما يتم إحضارهم للدفن هنا تكون رائحتهم كريهة جداً. أنا أيضاً لا أريد سوى تابوت بسيط وصليب وأربع دعوات من القسيس وهلم بنا نمضي. لا أريد بكاء ومشاهد مؤثرة. لو كان لي ابنة فسأقول لها اسمعي، لا بكاء ولا عويل ولا طقوس ولا مسرحيات ولا أكل خراء، أريد أن تكون جنازتي بسيطة وهادئة مثل بقية المساكين. لكن جيليان كان يقول إن أحداً لا يريد أن يموت بائساً وحيداً، ليس شيئاً جميلاً أن تموت ولا يكون هناك حقير واحد يبكيك، هذا الجيليان لم أكن أفهمه، أحياناً كان يجيئني بأفكار غبية مثل أفكار رئيس الوز... كنت أقول له يا زُمْلُ ألا تعلم كم يلزمك نقود لطبع البطاقات والصلوات وإحضار الأزهار وإيقاد الشموع وإقامة القداس وإحضار الحمّالين ودفع أجرة القسيس وأجرة سيارة دفن الموتى وسيارات التاكسي ودفع ثمن التابوت الجميل اللّمّاع (ثم يأتي بين يديّ فأصدمه مع الجدران أثناء إنزاله) وثمان شاهد القبر والنصب الرخامي أليس كذلك زُمْلُ، ماذا سيفيدك بكاء أحدهم؟ وأنت من سيبكيك يا سيد جيليان (لأنّ هذا الجيليان أعزب لم يتزوج قط في حياته) وأظنه لم يعشق امرأة أبداً سوى كونشيتا المتوفاة منذ 1901. كنت أراه يطيل المكوث على قبرها وأظنه أحبها من صورتها التي على القبر. على الأرجح

أنها أيضاً لم تتزوج في حياتها، ويبدو أنها كانت ميسورة الحال لهذا كنت أسمعه يخاطبها أحياناً ببعض الكلمات المبهمة.

لكنّ جيليان لم يكن يقول لي أيّ شيء عن كونشيتا. الشيء الوحيد الذي كان يردده باستمرار أنه لا يريد أن يُدفن وحيداً بئساً و كنت أواسيه قائلاً "لا تقلق سأكون أنا موجوداً" لأنني أصغر منه سنّاً ليس كذلك؟ وكونشيتا (على كل الأحوال باقية هنا لن تذهب إلى أيّ مكان) لكنني كنت أبتلع لساني اللعين ولا أقول له شيئاً عن كونشيتا التي تشاجرنا مرة بسببها وكان على وشك أن يحبسني في القبور.

أكثر شيء كنت أحب القيام به هو تنظيف القبور. جيليان كان دائماً يجعلني أنزل في القبر وبما أنني أحب المزاح ولا آخذ الأشياء بجديّة كنت أوهمه بأن الميت الذي في القبر ما زال حياً. "جيليان، يا إلهي، هذا الرجل ما زال حياً" وكانت تنظلي عليه بالكذبة في كل مرة. كنت أنزل إلى القبر مسلحاً تسليحاً جيداً بالقفّة والمجرفة وقفازات ماركة فيليدا، وأثناء جمعي للعظام كنت أقول لنفسني من يدري أيّ رأس كان هذا؟ ثم ألقيه في القفّة وأتابع التنظيف، ثمّ أشدّ الحبل فيرفع جيليان القفّة ثم يُلقي بمحتوياتها في البئر بعد أن يتم فصل الملابس عن العظام الخ. و كنت أحياناً أنفحص ماركة الملابس التي ألبسوها للميت ليدفن بها، وكان جيليان يقول لي بأنني فاضي أشغال وبنصف عقل و كنت أقول له بأنه جبان وبأنه لا ينزل إلى القبور أبداً كما أفعل أنا



بسبب جنبه لكنه كان يجيب بأنه ملّ من فعل ذلك لسنين طوال  
وبأنه قد حان دوري الآن للقيام به... " جيليان جيليان لقد فاق  
هذا الميت، يا إلهي ماذا أفعل لقد فاق من موته....".

أكثر ما يضايقني هو أوّل يوم من نوفمبر عندما ندفن أجنّة النساء  
اللواتي أسقطن أجنّتهنّ أثناء الحمل. فذلك يوم بكاء ووعويل. أنا  
لا ألوم هؤلاء النسوة المسكينات. دعنا نقلها بصراحة، عندما  
تكون في انتظار مولود جديد ثم يموت في أسبوعه العاشر مثلاً  
فيقولون لك لا يا صديقي، لا يمكنك دفنه الآن، عليك الانتظار  
لسته شهور أخرى، أو سنة، إلى أن يجتمع لدينا عدد كاف  
من الأجنّة لندفنها معاً. عليك أن تتخيل ماذا يكون شعور تلك  
الأمهات، ثم يضعونه في كيس بلاستيكي ويلصقون عليه علامة  
بالاسم ويضعونه في المجمّدة. يحزنني أمر هؤلاء الناس لكن  
عليهم أن يفهموا يا زُمل بأننا لا نهشّ الذباب هنا وبأنه لا يمكننا  
أن نقوم بدفن كل جنين يأتينا بشكل منفرد، باختصار هذا أكثر  
ما يضايقني في هذا المكان. وكنت قد أخبرت جيليان بهذا فقال  
بأنه من المفروض ألا يضايقني أيّ شيء هنا، وإنه إن استمرت  
هذه الأشياء بمضايقتي فبإمكانني ترك العمل.

في إحدى المرات قلت لجيليان إنهم في الخارج يأخذون  
الأموات إلى المقابر على درّاجات نارية فقال لي بدهشة "ماذا؟  
اتركني وشأني لا شك بأنك تحلم" فقلت له إنهم يفعلون ذلك  
فعلاً وبأنّ هذه فكرة جيدة لمالطا حتى لا تعلق الجنازات في

زحمة المرور، وقلت له بأنني قررت عندما أموت أن أنقل على دراجة نارية لأنني متأكد من أنني عندما أموت لن يكون هناك سيارة واحدة قادرة لنقل الموتى لأنها ستكون جميعها إما في الخارج أو معطوبة وبأنهم لن يجدوا عناء في إيجاد دراجة لنقلي، علاوة على أنني خفيف الوزن مما يسهل في عملية نقلي وإذا ما انفجروا بالضحك فسأقول لهم إن هذا يحدث في بلدان الخارج. جيليان أطرق ساهماً ثم قال لي "نحن المالطيين مازلنا متخلفين كأنا مازلنا نعيش زمن النوع الواحد من الحلويات<sup>9</sup> لذلك بقينا بالعربات القديمة وحكومتنا لا تصدر تراخيص لعربات جديدة وأنيقة إلا بشق الأنفس فما بالك بتراخيص للدراجات النارية". لا بد من القول إن جيليان كان يكون على حق أحياناً.

ارتديت لك أفضل جاكيت لدي، وانتعلت أفضل حذاء ولبست لأجلك حتى ربطة عنق. الحمد والشكر لله الذي أظنه موجوداً في السماء لأنك رحلت عنا في الشتاء يا جيليان.. صحيح أنك كنت تغضبني كثيراً إلا أنك تستحق كل الاحترام الذي يليق بدافن موتى قدير. تستحق احتراماً لا أكّنه للآخرين. ربما أنت الآن يا زمل، مع جميلتك كونشيتا وأنا هنا، وربما يرسلون لي دافن موتى جديد.. يستحسن ألا أخوض في هذا لأنني سأنتهي إلى الكفر، هل تعلم بأن طلب التوظيف للعين قد صدر الآن.. تلك الحكومة الماكرة، كيف تدفع راتباً إضافياً تلك الماكرة؟ كم أتمنى أن تغرق في دمهها.. وعلي الآن أيضاً أن أعمل ساعات

إضافة! من كان يصدق أنني سأعمل ساعات إضافية؟ لا أدري،  
أظن أنني أيضاً سأترك العمل هنا يا صديقي جيليان ماذا تقول؟

يخرج بولس دافن الموتى

يسمع تسجيل لمساعد كبير الأساقفة قونزي وذراعه الأيمن في  
أحد تجمعات الستينيات عندما تم تكفير الاشتراكيين ما بين عام  
1961 وحتى 1964.

".... يبدو جلياً أنّ أولئك الذين يتشدقون كثيراً بمعرفة الرسائل  
البابوية لم يقرؤها جيداً. ألا يعرفون أنّ البابا بيوس الحادي عشر  
كان قد أعلن بمنتهى الجلاء والوضوح أنّ الاشتراكية، كحركة  
وكمبدأ، وكحقيقة تاريخية تستحق الإدانة؟ الاشتراكية سيئة لأنها  
تغتصب حقوق الناس وتعطيها للدولة. الإنسان طبقاً للاشتراكية،  
لا يملك شيئاً باستثناء ما تسمح له به أو تعيره له الدولة... وقرار  
بناء الأسرة وحلها أيضاً بيد الدولة، وأين وكم وكيف يتعلم الأبناء  
أيضاً تقرره الدولة المهيمنة على الأراضي والمعامل والصناعات  
وحتى وسائل الترفيه وهذا ليس كل شيء، بل إن فكرة الحياة  
برمتها وفق فلسفة الاشتراكية مخالفة لتعاليم الكنيسة. الاشتراكية  
تنشد الجنة على الأرض ولا تلقي بالألجنة الأخرى. كيف لنا  
ألاً نعبأ بالروح وبالحياة الآخرة؟ لذلك فإنّ الاشتراكية لا يمكنها  
أن لا تكون علمانية، أي أنها تلقي بالدين جانباً بعد أن تسلخه  
عن الحياة اليومية وتقصر دوره على اللعب بالتمثيل والبخور  
والشمعدانات والأجراس والمواكب حسب الولاءات الخاصة

لكل شخص، أما إذا رفع الدين المسيحي صوته كما يجب عليه أن يفعل، مثلما فعل دائماً.. وسيبقى يفعل.... لا يمكن أن يكون استنتاج البابا بيوس الحادي عشر أكثر وضوحاً، تلك الرسالة البابوية التي يتم ذكرها كثيراً دون معرفة جيدة، رسالة (أربعون سنة)<sup>10</sup> تنصّ على أنّ المسيحي الحقيقي لا يمكنه أن يكون اشتراكياً حقيقياً وبما أنّه لا يمكنه ذلك، فعليه ألاّ يحتفظ بهذه التسمية كما يقول البابا".

### تدخل ميمي

قررت مرة أن أزيل الملصقات من على أسوار باحة الكنيسة، يلصقون ما يقوله الأسقف في فناء الكنيسة، غضبت ولم أدخل الكنيسة بعدها، ولم أذهب للاعتراف ولا لتناول الخبز المقدس، لأنني لم أفهم ما علاقة المنقذ بالمخلص حتى وإن كانت أمي تضع شمعة لكل منهما، ولم أستطع فهم العلاقة بين التحرير والذنوب التي لا تُغتفر في وقت كانوا يعلموننا فيه في المدرسة وفي الكتاب الديني أنه كلما قرأت أكثر كلما تعلمت أكثر، ولم أفهم كيف أصبحنا فجأة أتباع المخلص، نتشاجر مع أتباع المنقذ، ولم أفهم كيف كان الأسقف مُلماً بالسياسة أيضاً، وكيف كانت تقول عنه أمي إنه إنسان طيب القلب، وكيف كانت جارتنا ماريا تعير أمي بأنها وسخة مع أن أمي كانت تغتسل مرتين كل يوم، وكيف لم يكن القسيس يمنحها الغفران مع أنّ ذنوبها كانت عَرَضية وفي

الوقت نفسه يمنحه لجارتنا ماريّا، لم أفهم أشياء كثيرة والآن لا أدري ما إذا كنت سأدخل كنيسة مرة أخرى، باختصار كان هناك وقت كنت أصل فيه إلى فناء الكنيسة، وفي أحد المرات وجدت جورج يقوم بخلع الأوراق من على حوائط الباحة، فقال لي لو أنّ محاكم التفتيش ما زالت في مالطا لقاموا بسلخ جلودنا عن عظامنا قبل أن يحرقونا، ثم بدأ يضحك.

لكنني لم أضحك لأنه لم يكن بالأمر المضحك.

كان بحوزتي الكثير من الصّحف، كنت أضعها تحت السرير، لأنّ أمي كانت توصيني بإخفائها لأنها كانت تخاف، أما أنا فلم أكن أخشى شيئاً، ثمّ أحضرتُ لها جورج، فقالت لي إنّ كنت ترغيبينه زوجاً فلا بأس، وددت لو أخبرها بأنني لم أعد عذراء، وبأنه فعلاً من أريد، ولا أريد أحداً سواه، لكنني سأخبرها الآن حين تأتي، لأنها الآن ستفهمني، ولأنها إنّ أتت، فستمكث طويلاً وسيكون لديّ متّسع من الوقت لإخبارها.

### تتمشى حاملة الأزهار بيديها

سأقول لها بالأّ تبقى تلك الصّحف مخبأة تحت السرير، وأن تضعها في عتبة النافذة ليتمكن الجميع من قراءتها، أو على مدخل البيت كي يتسنى لمن يخجل من شرائها تناول واحدة مجاناً. سأطلب منها أيضاً أن تذهب إلى جارتنا ماريّا وتعطيها واحدة وتخبرها أنّ ميمي ليست مثل ابنتها.

سأخبرها أنه في ذلك اليوم الذي فقدت فيه عذريتي امتلأت باحة الكنيسة بالقرنفل والورد وأن الكنيسة بدأت ترمي الأزهار، والآن لا أجد زهرة واحدة حتى ولو بلاستيكية لتذكر الجميع بأني مدفونة هنا في هذه الرقعة المنسية أنتظر مجيء المنقذ. عندما تموت لا يبقى منك سوى اسمك فوق شاهد القبر، لكن إذا بهتت ألوان اسمك وتلاشت حروفه فما الذي يبقى؟ لن يعرف أحد بأني مدفونة هنا فما الذي يبقيني إذن في هذا المكان؟ عبثاً اقتلعت تلك الملصقات من فناء الكنيسة فاسمي ليس مكتوباً في أي مكان، وأمي لم تعد تأتي لزيارتي وبما أن أحداً لا يعرف بأني أرقد هنا فلماذا أنا مدفونة هنا؟ وعبثاً أقمت الدنيا وأقعدتها في ذلك اليوم لأن أحداً لم يلق بالاً، بالصليب أو بدونه فالأمر لا يعني شيئاً، اسمي ليس هنا وأنا لا لست موجودة.

كانت لدي بعض الأوراق أين هي؟ والصورة.. يبدو أنها بقيت على الدولار، واسمي نسوه في البيت، أو ربما سقط في الطريق ولم ينبت، أو ربما عثرت عليه جارتنا ماريا وخدشته كي لا يعرفني أحد. عندما تحضر أمي سأخبرها بكل شيء.. لكن.. يبدو أنها لن تأتي اليوم، أمي لم تحضر منذ زمن، ربما لأن الدار امتلأت بالقرنفل وتعذر خروجها بسببه، أو ربما لأنها قد غرقت في دموعها من شدة بكائها.

ها هي قد حضرت

كان لدي قلم أحمر شفاة، وبعض بودرة الخدود، أريد أن أبدو

جميلة أمامها فهذه آخر مرة ستراني فيها.

تبدأ بتصفيف شعرها

أودها أن ترى بأني بقيت جميلة، وبأني ما زلت هنا في انتظارها. لن أقول لها بأن كل شيء هنا ملتقط من هنا وهناك، وبأن اسمي لم يعد موجوداً، فهذا سيقلقها. لن أطلب منها أن تتذكر ذلك اليوم، تذكره سيؤلمها. لن أسألها ماذا فعلت بالصحف وبصورتي. لن أسألها ما إذا كانت لا تزال تشعل الشموع في الممر ولن أسألها إن كانت ترى جورج أم لا.

لا يا أمي، لقد مضى وقت طويل على ذلك

دعيني أرى إن كنت ترينني، لوّحي لي بيديك

تلوّح بيدها

أريني أنك تعرفين بأني مدفونة هنا

تلوّح

لديّ كل هذه لأعطيها لك، انظري

تخرج الكثير من الأوراق والأشياء الأخرى التي كانت تلتقطها من

الأرض منذ زمن

منذ مدة طويلة وأنا أجمعها من أجلك، أم تريدني أن أملاً فمي

بالأزهار وأملاً حضني بحروف اسمي الذي لم يعد يعرفه أحد؟

كلميني، لوّحي لي بيديك، دعيني أرى إلى أين أنت ذاهبة، أم

أنت فقدت الأمل في أنك ستفهمين ابنتك ذات مرة؟

وصورتني، هل تركتها في جارور الدولار؟

تتواري متممة

من المفترض أن أكون قد هرمتُ، لأرى إن كنت ما زال جميلة.  
قالوا بأنهم رأوا الثعابين في ذلك اليوم.

النهاية



## الهوامش

- 1 - أتباع المهندس كناية كانت تطلق على أنصار حزب العمال في مالطا نسبة إلى زعيم الحزب آنذاك المهندس دومينيكو منتوف.
- 2 - المنقذ والمخلص هما صفتان للسيد المسيح عليه السلام لكن المنقذ كانت تستعمل مجازاً للإشارة إلى دومينيكو منتوف زعيم حزب العمال ورئيس الوزراء الأسبق لجمهورية مالطا.
- 3 - يرمز باللون الأحمر لأتباع ومناصري حزب العمال في مالطا وهو اللون الرسمي للحزب.
- 4 - القندلفت هو القيم على الكنيسة وخدامها. من مهامه قرع الأجراس للصلوات وفي المناسبات الدينية والاجتماعية.
- 5 - يقصد المرديلا.
- 6 - رجل الإيزيم هي أيضا كناية لزعيم حزب العمال ورئيس الوزراء الأسبق دومينيكو منتوف.
- 7 - الأدولوراتا هي المقبرة الرئيسية في جزيرة مالطا.
- 8 - القبر العمومي هو مدفن جماعي يدفن فيه المشردون وكل من لم يقيم بشراء قبر قبل مماته.
- 9 - كان منتوف في تلك الحقبة قد حظر استيراد جميع أنواع

الشوكولاتة والسكاكر من الخارج بغرض حماية المنتجات المحلية.

10 - رسالة (أربعون سنة Quadragesimo anno) وهي الرسالة التي أصدرها البابا بيوس الحادي عشر سنة 1931 في الذكرى الأربعين لرسالة "الشؤون الحديثة" وفيها تركيز خاص على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية العاصفة بالمجتمع البشري والأوروبي المهدد آنذاك بحرب عالمية أخرى.